

**أوضاع دمشق في القرن السابع الهجري / الثالث
عشر الميلادي من خلال كتاب ((الذيل))
للأبي شامة صاحب الروضتين**

الدكتورة وفاء جوني

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أوضاع دمشق في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من خلال كتاب ((الذيل)) لأبي شامة صاحب الروضتين

الدكتورة وفاء جوني

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مقدمة:

بعد معركة حطين ببضع سنوات، توفي صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وخلف وراءه مملكة واسعة الأطراف، وفراغاً ضخماً، لم يستطع أحداً من أبنائه السبعة عشر، أو أخوته، أو أبنائه أخوته، أن يملأه.

لقد وزع صلاح الدين دولته بين أخوته وأبنائه خلال حياته، وأعاد التوزيع عدة مرات، وفي المرة الأخيرة، جعل لأولاده المناطق الحساسة والكبيرة، وجعل لأخوته وأقاربه مناطق الأطراف، فأوصى بالسلطنة لابنه الأفضل، وجعله حاكماً على منطقة دمشق، وجعل مصر لابنه العزيز عثمان، وحلب لابنه الظاهر غازي، وكانت منطقة الجزيرة

إضافة إلى الكرك من نصيب أخيه العادل، وأعطى حمص لحفيد عمه شيركوه، أما حماة فكانت بيد حفيد أخيه المنصور بن تقي الدين عمر.

ويبدو أن صلاح الدين، كان قد غرس بيده نية الخلاف بين أفراد أسرته، حين عدّ أراضي السلطنة كالمالك الشخصي يمكن توزيعه بين الأبناء والأخوة بحسب الرغبة، ولا نستطيع أن نقول: إن ذلك كان مفروضاً عليه، أو أن الظروف أجبرته على ذلك، ففي حديث له مع القاضي ابن شداد بعد تحرير بيت المقدس، صرح فيه صلاح الدين عن رغبته في متابعة الصليبيين إلى بلادهم قائلاً:

((..... متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره، أتبعهم فيه حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت^(١))).

ومن خلال هذا الحديث نستدل على أن تقسيم صلاح الدين لأملاكه، كان ضمن خطة رسمها لنفسه قبل وفاته.

لقد خلق هذا الوضع مرحلة جديدة، يمكن تسميتها مرحلة الصراع الأيوبي، فالأفضل لم يكن يصلح للزعامة، لضعفه وسوء سيرته، فقد سمي بالملك النوام، والعادل لم تعجبه حصته من دولة صلاح الدين، فأخذ يعمل على إثارة الفتن والمنازعات بين أبناء صلاح الدين، لتصبح له الكلمة العليا في السلطنة، وهكذا مرت الدولة الأيوبية بحقبة من الحروب والخلافات داخل أفراد البيت الأيوبي.

أدى انقسام الدولة الأيوبية، التي أمضى صلاح الدين عشرين عاماً من عمره يشيّد بنيانها، إلى إضعاف قوتها العسكرية من جهة، فقد أصبح ملوك الدويلات الأيوبية وأمرؤها في عداة فيما بينهم، فإن كان صلاح الدين، قد أحسن السيرة، وجاهد ضد الفرنج، واستعاد بين المقدس وغيرها، فإننا نرى أن أبناءه وأفراد أسرته، الذين حكموا من بعده، قد أساءوا السيرة، وهدموا كل ما بناه صلاح الدين، وأهملوا شؤون البلاد،

والرعية، يتقاتلون فيما بينهم، وغارات الفرنج مستمرة على البلاد... لقد كان هؤلاء الحكام، ليس لهم هدف. غير الوصول إلى السلطة، وحياة الترف والبذخ بأموال الشعب، منهكين كاهله بمتطلباتهم. مستنزفين كل طاقاته وإمكاناته، مسببين له الويلات والدمار، تاركين مصيره للأقدار... في هذه الظروف القاسية والمضطربة، عاش مؤرخنا أبو شامة (من مواليد دمشق) فآلمه ما رأى من حكامه، وقارن حاضره بماضيه القريب (أي عهد نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي) فشرع يقرأ التاريخ، بعد أن أتقن علوم عصره. وأخذ يكتب في التاريخ. ليشرح ملوك البيت الأيوبي على الاقتداء بسيرة صلاح الدين. فبدأ بتأليف كتاب أسماء ((تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)). ثم هذبّه وزاد عليه وسمّاه ((عيون الروضتين)) وبعد ذلك على الروضتين بكتاب عرف بذيل الروضتين. أو ((تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين)). الذي بين أيدينا. وقد بدأه من عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م إلى عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م. أي منذ ما قبل ولادته بتسع سنوات حتى وفاته. وفي ذلك قال: ((وكان قد سهل الله تعالى لي. وحبّب إليّ أن جمعت في كتاب الروضتين. كثيرا من الحوادث الواقعة في زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما. وأصلح ما بعدهما. وانتهى ذلك إلى سنة وفاة صلاح الدين. ثم خطر لي أن أجمع كتابا. يتضمن كثيرا من الحوادث بعد ذلك. إلى آخر ما تدركه حياتي. وكان فيما حملني على ذلك. كثرة موت المعارف. فأردت إثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلبا على الأخرة يساعف^(١))).

وعلى الرغم من أن كتاب الذيل هو تراجم وفيات الرجال والأعيان. إلا أننا يمكننا أن نكون من خلال المعلومات المتناثرة هنا وهناك. صورة وافية عن أوضاع دمشق خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي/. وذلك لأن أبا شامة. عاش مع الناس العاديين في دمشق. وأقام بينهم. ولم يتقرب كثيرا من ذوي السلطة. فمن المعروف أن الكتابات التاريخية في العصور السالفة. كانت بمجملها سياسية

وعسكرية، ونادراً ما اهتم المؤرخون في الماضي بغير أخبار الحكام من ملوك وسلاطين، ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب الذي تحدث عن أخبار شريحة واسعة من المجتمع الشامي، ضمت إلى جانب الأعيان والقادة والسيوخ، الكثير من الناس العاديين (العامّة)، من خلال حوادث غريبة، وقصص طريفة، ذكرها دون أو يوليها من الأهمية ما تستحقه، لأنها لم تكن غاية كتابه الأساسية، فالقصد من كتابه كان على حدّ قوله: كتابة ترجمة لوفيات رجال عصره من ((المعارف والأخوان والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان^(٣))). ولا ننسى القصائد والأشعار الكثيرة، التي زينت كتابه، وأضفت عليه مسحة من المتعة والتغيير، سواء أكانت له أم لغيره، فكانت تلك الأشعار تحكي قصصاً كثيرة، وتجيب على أسئلة عديدة، وتشرح واقعاً مرّاً عاشه المؤرخ ومجتمعه بأكمله.

أوضاع دمشق من خلال كتاب الذيل:

أولاً: الحياة الاقتصادية بشكل عام:

قبل الدخول في الحديث عن الأوضاع الاقتصادية، لا بدّ من القول: إن الحروب الصليبية التي استمرت طوال قرنين من الزمان، قد أرهقت المنطقة العربية الإسلامية، وكانت سبباً في حدوث تغييرات كثيرة، كما أنها تركت بصماتها السلبية على جوانب عديدة من جوانب الحياة العربية الإسلامية، فقد أنهكت الموارد الاقتصادية والبشرية للمنطقة، وكما تسببت في حدوث بعض التغيرات السلبية على المستوى السكاني والاجتماعي والثقافي... لقد استنفدت تلك الحروب موارد الأمة العربية، التي وجدت نفسها مضطرة لتوجيه كل طاقاتها وإمكاناتها نحو العمل العسكري^(٤)، فإذا أضفنا إلى ذلك، ما وصلت إليه بلادنا في ظل حكم من البيت الأيوبي من خلفاء صلاح الدين (الغرباء عن البلاد)، الذين كان لا همّ لهم إلا جمع المال والثروة، وإثارة الفتن والحروب من أجل الوصول إلى السلطة، ضاربين بمصالح الشعب عرض الحائط،

يعيشون عيشاً رغيذاً على حساب فناء الشعب، كل ذلك والغزو المغولي في طريقه إلى البلاد... أدركنا واقع الحال...

لقد عاش أبو شامة في نهاية العصر الأيوبي ومع بداية الحكم المملوكي، الذي ترافق مع الاحتلال المغولي لبعض البلدان العربية، لذلك فإنه يعدّ خير من قدّم صورة المجتمع الدمشقي في تلك الحقبة. وكتاب الذيل، كغيره من كتب ذلك الزمان، اهتم بأحداث العالم الإسلامي بشكل عام، من هنا كانت للمادة السياسية، أما المعلومات الاقتصادية، فهي شذرات متفرقة في الكتاب، حاولت تتبعها وجمعها من خلال المواد السياسية، لذلك تداخلت السياسة مع الاقتصاد، وهذا أمر طبيعي ففي كل دولة من الدول مهما بلغت عظمتها، لا يمكن فصل الاقتصاد عن سياسة البلد، يضاف إلى ذلك ارتباط ما جرى في الشام بما كان يجري في مصر مقرّ السلطنة الأيوبية ومن بعدها المملوكية.

ولنتابع مع أبي شامة أوضاع دمشق الاقتصادية آنذاك... ففي أحداث سنة ست وتسعين وخمسة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م، ((توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، صاحب الديار المصرية، وعمره سبع وعشرون سنة وثمانية أشهر وأيام، وتوجه أخوه الأفضل من صرخد إلى مصر، فدخل القاهرة، ثم استصحب ولد العزيز على أنه أتابكة، وخرجا إلى الشام بالعساكر، فحصر دمشق، وأحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق، والحوانيت، وأحرق النيرب، وأبواب الطواحين، وقطعت الأنهار، وأحرق غلة حرستا في بيادها^(١٥))).

لقد استغل الأفضل وفاة أخيه العزيز صاحب مصر، فخرج من صرخد (بعد أن خسو دمشق لصالح عمه العادل نتيجة ضعفه وسوء تدبيره) إلى مصر، وجعل نفسه أتابكاً لابن أخيه الصغير، المنصور محمد، وعمره تسع سنوات وبضعة أشهر، وهنا كان من المفروض أن يبقى الأفضل في مصر، حاكماً لها باسم المنصور محمد الطفل، لكنّه

بدلاً من ذلك، أراد أن يستعيد ما ضاع منه من أملاك، وخاصة دمشق، لذلك توجه إليها مع ابن أخيه الصغير على رأس جيشه، وقام بحصارها، وإحراق ما ذكره أبو شامة من فنادق وحوانيت وغلل وغير ذلك... وبكلمة أخرى، إن الصراع على السلطة معناه أن يدفع الشعب الثمن... ثم أعاد الأفضل المحاولة مرة أخرى في العام ذاته، وذلك بمساعدة أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، وقد حاصرا دمشق بعساكرهما ((وحفروا عليها خندقاً من أرض اللوات إلى أرض يلبدا مشرقاً، احترازاً من مهاجمة من بدمشق لهم فيها^(٦)))، وبعد ذلك افترق الأخوان وعاد كل منهما إلى بلاده، لكن الأفضل لم يرتدع وأعاد المحاولة من جديد، وهنا كان عمه العادل بالمرصاد له، إذ تمكن العادل من الاستئثار بالسلطنة لوحده وذلك عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، وبعد ذلك بعام واحد، أي في سنة سبع وسبعين وخمسة، نزلت النوائب متتابعة بأرض مصر والشام، فذكر أبو شامة: ((وفيها كانت حوادث كثيرة عظيمة، منها هبوط نيل مصر، شهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام، وتفرقوا أيدي سباً ومزقوا كل ممزق، أعظم من سنة اثنين وستين وأربعمئة في أيام الملقب بالمستنصر بن الظاهر بن الحاكم أحد الخلفاء الفاطميين، فإن الناس في هذه السنة كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعد أمه على طبخه وشبهه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا، وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا كذلك بالأطباء، وكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها، وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم، وكفن السلطان من مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفاً، وامتألت طرقات المغرب والحجاز والشام برمم الناس، وصلى إمام جامع الاسكندرية في يوم واحد على سبعمئة جنازة^(٧))).

قد يستغرب المرء تلك القصص، ويعتقد أن فيها مبالغة كثيرة، ولكن إذا عدنا إلى مصادر أخرى عاصرت تلك الحقبة، مثل كتاب ((السلوك)) للمقريزي، لوجدناه ذكر مثل ذلك بقوله:

((فكانت المرأة توجد وقد خبات في عبيها كتف الصغير أو فخذ، وكذلك الرجل، وكان بعضهم يدخل بيت جاره فيجد القدر على النار، فينتظرها حتى تنزل ليأكل منها، فإذا فيها لحم الأطفال، وأكثر ما كان يوجد ذلك في أكابر البيوت، ويوجد النساء والرجال في الأسواق والطرقات، ومعهم لحوم الأطفال، وأحرق في أقل من شهرين ثلاثون امرأة، وجد معهن لحوم الأطفال، ثم فشا ذلك حتى اتخذه الناس غذاء وعشاء وألفوه، وقل منعهم منه، فإنهم لم يجدوا شيئاً من القوت، لا الحبوب ولا الخضراوات^(٨)). وكذلك ذكر عبد اللطيف البغدادي في كتابه ((الإفادة والاعتبار))، قصصاً تقشعر لها الأبدان، ويشيب لهولها الأطفال، فمما ذكره في حوادث تلك السنة ذاتها: ((وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم، ممن لم يبق له كفيلاً ولا حارس، منبئين في جميع أقطار البلاد، وأزقة الدروب، كالجراد المنتشر. ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم...^(٩)). وبعد أن سرد البغدادي قصصاً كثيرة عن أكل لحوم البشر، ونبس القبور، وأكل الموتى، قال: ((وأما طريق الشام، فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم، بل محصدة، وأنها عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع، وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم... وكثيراً ما كانت المرأة تتلمص من صبيبتها في الزحام فيتصورون جوعاً حتى يموتوا، وأما بيع الأحرار فشاع وساع عند من لا يراقب الله، حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة، وعرض علي جاريتان مراهقتان بدينار واحد...^(١٠)). والمستعرض لمواد كتاب البغدادي يجد أنها تحكي قصة انهيار كامل اقتصادياً واجتماعياً وخلقياً... وقد توافقت تلك المجاعلت مع أوبئة وزلازل هائلة، بدأت من الصعيد، ثم عمت الدنيا، وامتدت إلى الشام، وذكر أبو شامة في ذلك: ((وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد، فعمت الدنيا في

ساعة واحدة، هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير، ثم امتدت إلى الشام والساحل^(١١))).

لقد كان لذلك كل أثره على الشام، فاضطربت أوضاعها، وارتفعت أسعارها، وزادت بها الزلازل بلاءً، فقد مات تحت الردم خلق كثير، وقال أبو شامة في ذلك نقلاً عن سبط ابن الجوزي: ((وأحصي من هلك في هذه السنة على سبيل التقريب، فكان ألف ألف إنسان، وكانت قوة إنسان، وكانت قوة الزلزلة في مبدأ الأمر بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف، ثم دامت بعد ذلك أياماً^(١٢))).

لقد امتدت الزلزلة إلى دمشق ((فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأكثر الكلاسة، والبيمارستان النوري، وعامة دور دمشق إلا القليل، وهرب الناس إلى الميادين، وسقط من الجامع ست عشرة شرفة، وتشققت قبة النسر، وتهدمت بالناس وهو بين بين^(١٣)))، وتكررت الزلزلة في العام التالي ٥٩٨هـ/١٢٠٢م، ((ورمت بدمشق رؤوس منائر الجامع وبعض شراريقه من شماله^(١٤))).

إن فناء تلك الأعداد من البشر (على الرغم من المبالغة بالأرقام) في ذلك الزمن، يعني فناء وخراب بلاد بأكملها، وبالتالي تعطل النشاطات السكانية والحياتية بمختلف أنواعها، وما يلزم ذلك من انقضاء سنوات طويلة لترميم وإصلاح الأوضاع، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو ما موقف الحكام الأيوبيين وسلطانهم العادل من هذا الحال، وهل عانوا مثل ما عانى الشعب؟

وفي الحقيقة نلمس عند أبي شامة إجابة على ذلك، لكنه لم يفصل لنا فيها كثيراً، فقد قال: ((وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلي، لولا تدارك لطف الله تعالى بإجراء نيلها، والإسعاد بما كان للملك العادل فيها من الغلال التي صرفها في تقاوي البلاد ومؤون وإعانة، وبيعاً، وصدقة، فتماسك من كان مقيماً بها، وتراجع إليها من قدر على الرجوع من أهلها^(١٥))). أما المقريزي مؤرخ مصر، فقد أوضح لنا الحال

بتفصيل أكبر، فقد استشرى أمر المجاعة، بعدما ما استمر انقطاع النيل ثلاث سنوات، وتجمع عشرات الألوف من النازحين أمام قصر السلطنة، واضطر السلطان العادل الأيوبي لإيجاد علاج لهذه الجائحة، فأطلق للفقراء شيئاً من الغذاء وقسم الفقراء على أرباب الأموال، وأخذ منهم اثني عشر نفساً، وجعلهم في مناخ القصر، وأفاض عليهم القوت، وكذلك فعل جميع الأمراء وأرباب السعة والثراء، وكان الواحد من أهل الفاقة، إذا امتلأ بطنه بالطعام بعد طول الطوى سقط ميتاً، فكان يدفن منهم كل يوم العدة الوافرة، حتى أن العادل، قام في مدة يسيرة بمواراة نحو مائتي ألف وعشرين ألف ميت .

وهكذا جاء العلاج الحكومي متأخراً جداً، كما أنه أفاد السلطة بأن خلصها ببضع لقيمات، من عدة ألوف من الجائعين الذين تجمهروا أمام القصر، وفي أزقة المدينة وطرقاتها.

تلك كانت معاناة الحكام... فهم بالتأكيد لم يعانون ويقاسوا ما لاقاه الشعب، فقد ظلت خزائهم مليئة بالأموال، ومطابخهم عامرة بالحبوب والأطعمة، وبالمؤن واللحوم... بدليل أنهم لم يهملوا صراعاتهم على السلطة، حتى في تلك الظروف القاسية، إذ ظلت الحروب مشتعلة فيما بينهم، فقد حاصر الأفضل ومعه الظاهر (صاحب حلب)، دمشق في السنة ذاتها ٥٩٧هـ/١٢٠١م، وكان العادل آنذاك في مصر، ثم حضر إلى دمشق ((وزحف الأفضل والظاهر، فوصلوا إلى باب الفراديس، وأحرقوا فندق نقى الدين، فقاتلهم المعظم، وحفظ البلد، فأقاموا نحو شهرين، وبعث العادل فأوقع الخلف بين الآخرين فرحلوا...^(١٦))).

ثم إن هناك أمراً جميلاً نجده عند أبي شامة، وهو قياس الزلزلة، ولعلّه أراد بذلك قياس مقدار زمن الزلزلة وليس شدتها، لأن قياس الشدة أمر يحتاج إلى مقاييس علمية دقيقة، لم يتوصل إليها العلم زمن أبي شامة، وأبو شامة عندما تحدث عن الزلزال، نقل

لنا بعض الظواهر الغريبة المدهشة التي رافقتها، مثل تساقط نجوم كبيرة، ورؤية دخان نازل من السماء إلى الأرض بنواحي أرض عاتكة ظاهر دمشق، وذلك سنة ثمان وستمئة^(١٧)، وفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م، ((احتترقت خزانة السلاح لحامية دمشق التي تعمل النشاب، وذهب جميع ما فيها^(١٨)))، ولم يبين لنا أبو شامة سبب الحريق، ونحن لا نلومه على ذلك لأن كتابه كتاب تراجم وفيات بالدرجة الأولى، ولكن ما أردنا الخبر لكي نصل من خلاله إلى القول: إن حادثاً كهذا يعطي الحكام مسوغاً لفرض ضرائب جديدة على الشعب لتعويض السلاح الذي احترق. أما في حوادث سنة تسع عشرة وستمئة ٦١٩هـ/١٢٢٢م، فقال ((وفيها ظهر بالشام جراد كثير، لم يعهد مثله فأكل الزرع والشجر والثمر، فأظهر المعظم (ابن العادل الأيوبي وهو صاحب دمشق) أن ببلاد العجم طيراً يقال له السمرمر، يأكل الجراد، فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق، ورتب معه صوفية وقال: يمضي إلى العجم فهناك عين تجتمع فيها السمرمر، فتأخذ من مائها في قوارير وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلما رآه السمرمر تبعك، وما كان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدين خوارزم شاه، واتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي وقرر معه الأمور وجعله سنداً له، وكان الجراد قد قلّ فلما عاد البكري كثر الجراد. قال الناس في ذلك أشعراً، وظهر فعل المعظم للناس، وعلم الأشرف والكامل، وشاع الحديث، فقلل للمعظم؛ لو كنت بعثت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى. ولما عاد البكري من الرسالة ولآه المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة^(١٩))).

لقد كان قصد المعظم من إرسال المحتسب تلك الرحلة الطويلة، الاتفاق مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه ضد أخويه الكامل والأشرف، ولم يكن قصده أن يغيث شعبه ويجد حلاً لمشكلة الجراد، وقد أراد القدر أن تتكشف حيلته فعاد الجراد بكثرة مع عودة المحتسب، والمفروض هنا أن يقل الجراد لأن العلاج قد حضر مع المحتسب... إن هذه القصة توضح لنا أموراً كثيرة، اقتصادية وسياسية وإدارية وغير ذلك... فالإنسان

العادي في ظل الحكم الأيوبي. كان يعاني أشد المعاناة من ضرائب، وكوارث بشرية (حروب وويلات) وكوارث طبيعية (زلازل وجراد) تقضي على محصوله الذي يقتات منه. فيشكي حاله للسلطان. وهذا أمر طبيعي، ولكن السلطان كان يضرب بمصلحة الشعب عرض الحائط مؤثرا عليها مصلحته الخاصة التي لا يعلو عليها شيء، تاركاً أفراد شعبه لقدرهم. وهو يعدهم ويمنيهم الآمال بالنجدة والعون. وبدلاً من ذلك، قام بترقية المحتسب وسلمه مشيخة الشيوخ أيضاً. هذا كان حال ملوك البيت الأيوبي بمجملهم. فقد ذكر المقرئ في أحداث عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م، ((وسلم شد الأموال بالدواوين، إلى بهاء الدين قراقوش، مضافاً إلى شد الزكوات، فكمل شد المال له، وفيه كثر الموت...^(٢٠))). وكثيراً ما ذكر أبو شامة في حوادث سنواته. تعرض دمشق للحصار. وما جره ذلك من خراب وويلات على أفراد الشعب. ففي حوادث سنة ست وعشرين وستمئة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، قال: ((تقدمت جيوش الكامل مع أخوته الأشرف، والمظفر، والعزیز، والصالح، وابني أخيه الجواد بن محمد، وداود بن المغيث، ومعهم صاحب حمص، وعسكر حلب وحماة، فنزلوا عند الجسور وراء مسجد القدم، وقطعوا عن دمشق أنهارها: بانياس، والقنوات، ثم يزيد وتورا، ونهبت البساتين، وأحرقوا الجواسق، وخربت رباع، وبادت الأشجار بانقطاع الماء، وجرت وقعات، فقتل قوم وجرح آخرون. وهدم الكثير من الرباع والخانات حول البلد من خارج لاسيما على كل باب. ولما كان يوم السبت... وقعت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير، وجرح جم غفير، ونهب قصر حجاج والشاغور، وأطلق فيها النيران، ووصلت خيل محاصرين إلى دور البلد من جوانبه، ودخلوا الميدان الأخضر، ثم رجعوا آخر النهار إلى خيامهم وقد كثرت القتلى والجرحى في الفريقين، وكثر الحريق والنهب^(٢١))).

لقد جرد ملوك البيت الأيوبي أسلحتهم ضد بعضهم البعض، واستنزفوا طاقاتهم ليستولي أحدهم على ملك الآخر. فما إن سلم الكامل بيت المقدس إلى الصليبيين في

اتفاقية يافا ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، حتى تفرغ لمحاربة ابن أخيه صاحب دمشق (الناصر داود بن المعظم)، فكانت تلك الواقعة^(٢٢))).

وفي سنة خمس وثلاثين وستمئة، ذكر أبو شامة حصار دمشق مجدداً، فقال: ((حوصرت دمشق، وفيها الصلاح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب، حاصره الكامل أخوه وابن أخيه الناصر داود... فجرى نحو الحصار المتقدم سنة ست وعشرين إلا أن هذا الحصار كان أكثر خراباً في ظاهر البلد، ورحيقاً ومصادرةً، وأقل غلاءً، ولم تطل مدته، فإن الصلح جرى...^(٢٣))). ولكن بعد عام واحد، أي في سنة ست وثلاثين وستمئة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م، ((ظهر بدمشق غلاء شديد لم يعهد بمثله قبلها، بلغت غرارة الحنطة خمسة وعشرين ديناراً بالمصرية، وذلك مائتا درهم وخمسة وعشرون درهماً، وزاد رطل الخبز الخرجي على درهم، وجميع أنواع المطعومات غلت...^(٢٤)))، وإذا كان الحكام لا رحمة ترجى منهم، فلننتظر إلى رحمة السماء في تلك السنوات، ففي سنة ٦٣١هـ/١٢٤٠م، في أيام الممشق ((جاء مطر عظيم نهاراً، جرت منه سيول عظيمة، هدمت كثيراً من الحيطان والبيوت^(٢٥))). وفي أواخر السنة التي تلتها: ((ظهر نقصان المياه من السماء والأرض، نقصت الأنهار، ونقصت الآبار، وهلك الزرع والثمار^(٢٦)))....

أما في سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٥م، فقد ((كسرت الإفرنج لعنهم الله ومن انضم إليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة من عسقلان وغزة، وغنم منهم أموال عظيمة وأسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وذهب برؤوس المقتلين والمأسورين إلى مصر، ووقع الرعب في قلب صاحب دمشق، فتهياً للحصار، وخرّب رباعاً كثيرة حول البلد، وغرقت المساكن التي على حافة بردى، بين جسري بابي توما والسلامة، بسبب خراب جسر باب توما وسده، فرجع الماء وارتفع، وصار بحراً. فوقع ما كان على حافته والله المستعان^(٢٧))).

لقد خاف صاحب دمشق من حدوث هجمة انتقامية من قبل الفرنج على دمشق، فقام باتخاذ بعض الإجراءات الاحتياطية لإنقاذ البلد، فماذا كانت النتيجة!!؟

كانت النتيجة بدل أن يأتي الفرنج ويخربون البلد، خربته إجراءات الحاكم الوقائية!!

وفي السنة التالية، أي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م، افتتح أبو شامة حوادث السنة، بذكر أن دمشق ما زالت محاصرة، وقد ((ضويقت مضايقة شديدة وقد اجتمع عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزمية وغيرهم. ففي تلك الليلة أحرق قصر الحجاج، والشاغور، واستولى الحريق على مساجد وخانات، ودور عظيمة، ومن ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير، وكان جامعاً تقام فيه الجمعيات، ثم نصبت على دمشق المجانيق، ورميت به بين بابي الجابية والصغير، ونصبت أيضاً مجانيق داخل البلد، وترامى الفريقان، وأمر بتخريب حارة العقبة خارج باب الفرديس، وباب السلامة، وباب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر، واشتد الغلاء، وعظم البلاء... ثم أحرقت العقبة في أول ربيع الأول^(٢٨)). ولكن بعد ذلك تم فك الحصار عن دمشق، وتحقق الصلح والحمد لله... ولكن الناس لم ينعموا طويلاً بذلك الصلح، ففي أواخر السنة ذاتها ذكر أبو شامة: ((وفيها اشتد الغلاء بسبب قطع الخوارزمية الطرقات،... بلغت غرارة القمح ستمئة درهم ناصرية نصفها بثلاثمئة درهم، وبيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم على تفاوت الأخبار، والله يكشف هذا الضر برحمته،... وبقيت الصعاليك مرميين في الطرقات، وكانوا يطلبون لقمة، ثم صاروا يطلبون فلساً يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما تطعم الدجاج، وشاهدت ذلك بعيني ثم اشتد الغلاء زيادة على ذلك فبلغ كل غرارة حنطة بمئة دينار صورية ثم ناصرية، ثم سمعت أنه بيع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهم، وكتب بها وثيقة على المشتري إلى أجل شهرين، واشترت أنا الخبز كل رطل بأربعة دراهم غير مرة، ثم تفاقم الأمر.. فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم، وخبز الشعير كل أوقيتين ونصف بدرهم، وبلغت الغرارة ألفاً ومئتي درهم وخمسين درهماً فضة ناصرية، وبيع الدقيق

كل أوقية بدرهم، كل رطل بنحو عشرة دراهم، وبيع الشعير كل كيل بخمسين درهماً الغرارة بستمئة درهم... وكذا الدبس بلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وسمعت من ينادي عليها وقد نزل السعر بباب الجامع الغربي من باب البريد يقول أرخص الله أسعار المسلمين كل أوقية بستة عشر قرطاساً، فقال بعض السامعين: كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية، واليوم نفرح كيف وصلت إلى ستة عشرة قرطاساً، وبيع البقلاء الأخضر كل رطل بدرهم وربع... والفحم الردي كل رطل بستة دراهم، ولم تنزل الأسعار في اشتداد وارتفاع إلى أن بيع مد الحنطة بعشرين درهماً ونحوها، وبلغت الغرارة ألفاً وخمسمئة درهم، وبيع الخبز كل أوقيتين إلا ربع بدرهم والرطل سبعة دراهم في يوم عيد النحر وقبله، ثم إن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر من بعد عيد الأضحى، ولم يزل يأخذ في النزول إلى أن بيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين، واللحم كذلك...^(٢٩)، واستمرت الأوضاع على ذلك حتى السنة التالية حيث ((كسرت الخوارزمية أشد كسرة وقتلت ملوكهم، وسبيت نساؤهم، وغنمت أموالهم بين أرض بعلبك وحمص، وكسرهم الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، ومعه جيوش حلب وحماء، وغيرها من البلاد، وجاءنا الخبر بذلك إلى دمشق فبيع الخبز كل رطل بدرهم ونصف، والحمد لله على هذه النعمة، ونسأله المزيد بفضلها^(٣٠))).

وهكذا كان يتكرر حصار دمشق بين الحين والآخر، وبأوقات متقاربة، وكان يزداد الضغط على السكان، فينقطع عنهم الطعام والمؤن، كما تقطع عنهم مياه الأنهار، وتبدأ المعارك، ويكثر القتل والأسر والحرائق، ويجوع الناس ويطرحون في الطرقات، من شدة الجوع، وليس هناك من يرجم من جهة الملوك والحكام وذوي السلطان "مع قدرتهم على ذلك بالأموال المكسدة لديهم"^(٣١). وكانت ترتفع الأسعار، وتستمر في الارتفاع، ولا يأتي الفرج إلا بعد طول جهد ومشقة، وما إن يتنفس الناس الصعداء حتى يبتلون بغزو جديد وحصار جديد... وكان من يفرض الحصار، إما من ملوك

البيت الأيوبي أنفسهم، أو من الفرنج، أو الخوارزمية أو التاتار والمغول، فأين الفوج، وكل هؤلاء محدقين بالبلاد...؟! ولو تتبعنا تطور الأحوال الاقتصادية في دمشق، بعد قيام دولة المماليك، لوجدنا أنها ازدادت سوء وذلك بسبب قدوم المغول واحتلالهم بغداد، والدمار الذي ألحقه بالبلاد، وبالتالي وصول أنباء عن قرب وصولهم إلى الشام، ففي أخبار السنة التي احتل فيها المغول بغداد، ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، قال أبو شامة: ((وكثر الرجفات بقصد التاتار بلاد الشام، ونزلهم على الفرات...^(٣٢)))، وفي أخبار السنة التالية، شرح لنا أبو شامة الوضع بدقة: ((وفي هذه السنة، كثرت الأراجيف بدمشق بسبب التاتار أهلهم الله، وردت أخبار بأنهم قطعوا الفرات، وأغاروا على بلاد حلب، فهرب كثير من الدمشقيين، وباعوا حواصلهم، وخرجوا على وجوههم تفرقين في البراري والجبال والحصون، وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد، فمات كثير منهم، ونهب آخرون، وثبت في البلد من قوى الله قلبه وإيمانه^(٣٣))).

هكذا كان حال الناس، والمغول لم يصلوا بعد إلى دمشق، فكيف سيكون الحال بعد وصولهم. تابع أبو شامة أخبار المغول في حوادث سنة ثمان وخمسين وستمئة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ((ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التاتار على حلب بالسيف، وهرب صاحبها من دمشق بأمرائه الموافقين له على سوء تدبيره، وزال ملكه عن تلك البلاد، وكان نزول التاتار على حلب في ثاني صفر، واستولوا عليها بعد سبعة أيام في تاسع صفر، وأمنوهم ثم غدروا بهم فقتلوهم، وكان رسل التاتار عندنا بقرية حرسستا، فأدخلوا دمشق...^(٣٤))). ثم تابع الأحداث بعد ذلك قائلاً: ((وفي ربيع الآخر، رجعت عساكر التاتار التي كانت عبرت على دمشق، بعدما عاثت في بلاد حوران، وارض نابلس وما حولها... فقتلوا على عاداتهم الرجال، وسبوا الصبيان والنساء، واستاقوا من الأسارى والغنائم من البقر والغنم والأسلاب شيئاً كثيراً، ووصلوا بذلك إلى دمشق، فاشترى من الأسرى شيء كثير، وهرب بعضهم، واستحيوا خلقاً كثيراً...^(٣٥))).

وبعد ذلك تحدث عن حصار قلعة دمشق في السنة ذاتها بقوله: ((وقد كانت قلعة دمشق، امتنع بها الوالي والنقيب في جميع كثير بها، فاحتيج إلى حصارها، فجاءها من التاتار خلق كثير... فباتوا تلك الليلة حتى قطعوا من الأخشاب ما احتاجوا إليه، وكانوا استصحبوا معهم المجانيق تجرها الخيل وهم ركاب عليها، وقدموا قبل ذلك أسلحة تجرها البقر على العجل، وأصبحوا يوم الاثنين يجمعون الحجارة لرمي المجانيق، فأخربوا حيطاناً كثيرة، وأخذوا الحجارة من أساسها، وأخربوا طرقاً من القنوات بسبب الحجارة وهياؤها للرمي، ونصبت المجانيق في ليلة الثلاثاء، وكانت أكثر من عشرين منجنيقاً، وأصبحوا يرمون بها رمية متتابعاً كالقطر، فأخرب كثيراً من القلعة من غربها، فما أمسوا حتى طلبوا الأمان فأمنوا وخرجوا من الغد، ونهب ما في القلعة، وأحرق فيها مواضع كثيرة، وهدم من أبراجها أعاليها، ثم ساروا إلى بعلبك فتسلموها، وحاصروا القلعة وأخذوها، وساروا إلى نابلس وغيرها، ووكّلوا بخراب كل مدينة بين برجين من قلعة دمشق ففعل ذلك^(٣٦))).

وصار الناس يهربون من دمشق إلى مصر، ومات قسم كبير منهم على الطريق، وقد عدد أبو شامة أسماء عدد منهم ممن كان يهيمه أمرهم، وبعد معركة عين جالوت، تحسنت أحوال الناس كثيراً، وارتفعت معنوياتهم، وعاد الهاربون إلى بلادهم، لكن الغلاء استمر بسبب زغل العملة، وهكذا ظلت الأوضاع الاقتصادية والأحوال المادية سيئة بشكل عام عند أفراد الشعب، لذلك ختم أبو شامة أخبار السنة ذاتها ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، بقوله: ((وابتلي الناس في هذه السنة بغلاء شديد عام في جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما، بلغ رطل الخبز درهمين، ورطل اللحم خمسة دراهم،... والجبن درهماً ونصف، والثوم أوقية بدرهم، والعنب رطل بدرهمين، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة بالياقفة، وكانت كثيرة الغش بلغني أنه كان في المئة منها خمسة عشر درهماً فضة والباقي نحاس وكثرت في البلد كثرة عظيمة، وتحدث في إبطالها مراراً، فبقي من عنده شيء

حريصاً على إخراج خوفه من بطلانها، فتراه يدأب في شراء أي شيء كان، فيترايد في السلع بسبب ذلك، إلى أن بطلت في أواخر السنة، فعادت تباع كل أربعة منها برهم ناصري مغشوش أيضاً بنحو النصف^(٣٧)). ومثل ذلك أيضاً ما ذكره حوادث سنة ٦١١هـ/٢١٤م، من تعامل الناس بدراهم سوداء، حيث قال: ((وفيها حدثت المعاملة بالقرطيس السود العادلية، فبقيت زماناً بطل ضربها، وتناقصت من أيدي الناس إلى أن فنيت^(٣٨)). وهكذا توافقت الأحوال الاقتصادية السيئة لأهل دمشق مع انتشار العملة المغشوشة، وما يتبع ذلك من غلاء الأسعار، بسبب هبوط سعر العملة، وهو ما يدعى في زماننا هذا بالتضخم النقدي، وكل هذه الولايات وقعت على كاهل أفراد الشعب وغيرهم... وفي ظل هذه الأوضاع، من الطبيعي أن تتعطل النشاطات الاقتصادية بمختلف أنواعها من زراعة وصناعة وتجارة، فالدولة بحاجة دائمة إلى المال، بسبب كثرة الحروب والمشاكل، والمال يحبى من الشعب، والضرائب تزداد باستمرار... وعلى جهود هذا الشعب، استطاع الأيوبيون والمماليك، الاستمرار، وتأمين نفقات حياتهم العالية وقصورهم ثم الأعطيات، ومختلف نفقات الجند... هذه كانت باختصار صورة عن أوضاع دمشق من الناحية الاقتصادية، زمن أبي شامة في القرن السابع الهجري، الثالث عشر للميلاد.

وننتعرف الآن إلى الأحوال الاجتماعية في دمشق.

ثانياً: الحياة الاجتماعية بشكل عام:

لعل أجمل صور الحياة الاجتماعية، يمكن أن نرسمها من خلال قصيدة أبي شامة لزوجته (ست العرب ابنة شرف الدين بن دنو القرشي العبدي الأندلسي وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده)، فهي تعكس لنا صورة المرأة الدمشقية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد. كان أبو شامة معجباً

بزوجته، يعدّد خصالها الحميدة، فمن يقرأ قصيدته يشعر بأنها كاملة الأوصاف، فهي بنت حسب ونسب، ومما قال فيها:

تزوجت من أولاد دنو عقيلة بها من خصال الخير ما حير العقل
مكملة الأوصاف خلقاً وخلقة فأهلاً بها أهلاً وسهلاً بها سهلاً^(٣٩)

ولا بدّ من الانتباه إلى أن أبا شامة مقدسي الأصل، وهي أندلسية الأصل، ولعلها اختلفت ببعض عاداتها عن أهل دمشق، فدافع عنها.

راسترسل أبو شامة في تعداد خصالها، فهي صغيرة السن، كبيرة العقل، مدارية للأهل، رقيقة قلب مع سلامة دينها، مطرزة، خياطة، ذكية، مربية، حنانة ذات رحمة، سريعة دمع العين من رقتها... عدّد ذلك كله من خلال ستة وأربعين بيتاً لطيفاً من الشعر، وبالإضافة إلى ذلك فإنها:

لم ينكشف عنها بنان، يحار من مشى معها في حفظها يدها قبلا
عديمة لفظ والتفات إذ مشيت صموت فلا قطعاً ترد ولا وصلا

ومن الصور الاجتماعية التي يمكن استخلاصها من القصيدة، الطريقة التي كانت تفتح بها باب بيتها إذا طرق، فقال في ذلك:

يعزّ على من يطرق الباب لفظها جواباً فلا عقد تراها ولا حلا
يطيل قوفا لا يجاب محرّم عليها كلام الأجنبي وإن قلا^(٤٠)

أي أنها كانت تفتح الباب، وتقف وراءه، ولا تظهر وجهها، ولا تتكلم بكلمة واحدة، فيفهم الطارق أن الزوج غير موجود، وليس في البيت إلا الحريم.

هكذا كانت المرأة الدمشقية المثالية، فهي تتذر نفسها لبيتها ولزوجها ولأولادها، وتقضي عمرها في بيت زوجها لا تغادره أبداً، حتى ولو أشارت عليها النسوة بالذهاب معهن للتفرج في بعض المناسبات، فقال:

يُشِرْنَ عليها بالتفرج مرة فتأبى وقر البيت في عينها أحلى

ملازمة للشغل في البيت دائماً على صغر سنها لا تتي فعلاً^(٥١)

ولعله من المفيد أيضاً، أن نجد عند أبي شامة، صورة المرأة المغولية، في مقابل صورة المرأة الشامية الدمشقية. فقال في أحداث سنة ثمان وخمسين وستمئة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. ((قرئ فرمان القاضي محي الدين بالجامع تحت قبة النسر، وفيه توليته القضاء من قنشرين إلى العريش... وحضر قراءة فرمان نائب ملك التاتار من المغل (إيل سبان) وزوجته قعدت معه على طراحة نصبت لها بين زوجها والقاضي إلى جانب العود الشرقي الكبير الأوسط من أبواب النسر بالجامع، وشرع القاضي في جر الأشياء إلى نفسه وأولاده، من يتعلق به عدم الأهلية...^(٥٢))).

: لا يفهم من هذا، بأن المرأة الدمشقية، جلست حبيسة الدار فقط، وأن المرأة المغولية شاركت زوجها الحرب والسياسة، فمن الصور الاجتماعية الجميلة التي نقلها إلينا أبو شامة في أحداث سنة سبع وستمئة ٦٠٢هـ/١٢١٠م. ((وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وفيها: خرجت من دمشق إلى نابلس بنية الغزاة، وكان الملك المعظم عيسى رحمة الله بها، وجلست بجامع دمشق... وكان الناس من باب المشهد الذي لزيّن العابدين إلى باب الناطفانيين، إلى باب الساعات، وكان القيام في الصحن أكثر، بحيث امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفاً، وكان يوم لم ير في دمشق مثله ولا غيرها، وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة، يعني التي كان يقطعها من رؤوس التائبين، قال: وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها، وبعثت به إليه، وقالت: اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله، قال: فعملت من الشعور التي اجتمعت

مندي شكلاً لخيّل المجاهدين وكرفسارات، ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها، فحُمِلت على أعناق الرجال، وكانت ثلاثمئة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة، وقطعوا مثلها وقامت القيامة (٧٥)). وهناك صورة جميلة أخرى لدور المرأة، ذكرها أبو شامة عرضاً خلال ترجمته للشيخ عماد الدين بن محمد بن قدامة المقدسي، الذي توفي عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، حيث قال عنه: ((... وكان له رواية للحديث عن الثَّقفي وغيره، وقد أجاز أولادي رواية ما يجوز له عنه روايته، وهم محمد رحمه الله، وأحمد واسماعيل، وفاطمة جبرهم الله^(٧٤))). ويفهم من ذلك أن ابنة أبي شامة (فاطمة) كانت من بين النساء اللواتي كن يستمعن للدروس وللأحاديث على أيدي أعلام الشيوخ في ذلك الحين، وهذا أمر يستحق التقدير. ومن مظاهر الحياة الاجتماعية الجميلة، التي نراها عند أبي شامة، تزيين المدينة في بعض المناسبات، وما رافق ذلك أحياناً من توزيع المال على الفقراء، مع أن هذه الصورة الجميلة وحيدة عند أبي شامة فقال في أحداث سنة أربع وأربعين وستمئة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م: ((وفي تاسع عشر ذي القعدة يوم الخميس سابع ساعة فيه، دخل دمشق صاحبها نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وكان يوماً عظيماً بكثرة الخلق والزينة... فأقلم بها خمسة عشر يوماً، ثم رحل إلى بعلبك فكشفها ثم رجع ومضى نحو صرخد وتسلمها من صاحبها عز الدين أيوب المعظمي، ورحل إلى بلاد بانياس وتسلم حصن الصيبية من الملك السعيد بن العزيز بن العادل وهو ابن عن السلطان وفي خدمته، ثم تسلم حصن السلط. من ابن عمه داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب، وفرق بدمشق نحو تسعين ألف درهم على الفقراء، فخان فيها المفقرون، فنظمت فيهم قصيدة نحو أربعمئة بيت في شرح حالهم فيها^(٧٥))).

إن كلمات أبي شامة الأخيرة، قليلة لكنها معبرة، وهي تدل على أن الفقراء، كانوا كثيرين في المجتمع الدمشقي، لأن المبلغ الذي أمر بتوزيعه كان كبيراً، وتدل أيضاً على أن الناس عامة، والفقراء خاصة، كانوا يعانون من جشع وتسلط وقسوة عمال

الحكام، ونوابهم، وموظفيهم، حتى أنهم طعموا بمال الصدقة المخصص للفقراء... ثم إن تأليف قصيدة من أربعمئة بيت لشرح ذلك الحال، معناه أن الواقع مرّ والألم عميق حتى احتاج كل تلك الأبيات.

ففي جميع المجتمعات التي ينعدم فيها الاستقرار السياسي الداخلي، مع وجود التهديد الخارجي، وإذا اقترن ذلك بطغيان الجند الغرباء... تولد حالات شاذة من السلوك، فيها السرقة والانتهازية والاستغلال والفساد الخلقي والرشوة والشذوذ... وغيرها من الأمراض الاجتماعية التي تصيب المجتمع، وهذا يقودنا إلى صورة مأساوية أخرى في ذلك العصر، فبعد عامين من زيارة الصالح نجم الدين أيوب لدمشق، حدثنا أبو شامة عن قصة محزنة مخزية افتتح بها أحداث سنة ست وأربعين وستمئة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م: ((وفي يوم الجمعة سادس ربيع الآخر، صلب مملوك تركي صبي بالغ، كان لبعض الأمراء الصالحية النجمية يدعى السقسيني، زعموا أنه قُتل سيده لأمر ما، فصلب على حافة نهر بردى، تحت القلعة في آخر سوق الدواب، وجعل وجهه مقابل الشرق، وسمرت يده وعضداه، ورجلاه، وبقي من ظهر يوم الجمعة إلى ظهر يوم الأحد، ثم مات، وكان يوصف بشجاعة، وشهامة، ودين، وأنه غزا بعسقلان وقتل جماعة من الفرنج، وقتل أسداً على صغر سنه، وكان منه في صلبه عجائب، فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصلب، غير ممتنع ولا جازع، بل مد يديه فسمرتا، ثم سمرت رجلاه وهو ينظر لم يتأوه، ولن يتغير وجهه، ولا حرك شيئاً من أعضائه. أخبرني من شاهد ذلك منه جماعة وبقي إلى أن مات صابراً ساكناً لم يئن، ولم يزد على نظره إلى رجليه وجانبيه، تارة يميناً وتارة يساراً، ينظر إلى الناس، قيل إنه استسقى ماء فلم يسقى وتألمت قلوب من عندهم رحمة وشفقة على خلق الله تعالى من أنه صبي صغير، وقد ابتلي بمثل هذا البلاء، والمياه تتدفق بجوانبه وهو ينظر إليها، ويتحسر على قطرة منها وهو صابر على ذلك،... ولعله كان شهيداً رحمه الله، فإني أخبرت أنه

دافع عن نفسه أمراً لم يرضَ وقوعه به... وكان من أجل الصبيان، وأحسنهم وجهاً وأطولهم شعراً، وقد كان ثمنه ألوفاً من الدراهم...^(٤٦)، ومما قيل فيه:

ومتفردٌ من فوق أعواد حنقه وجود بنفس صانها خوف ربه

فيا عجباً ممن أشار بصلبه ألا أعجب وأخبر عن قساوة قلبه^(٤٧)

وهكذا نرى أن الترف المادي، الذي عاشه الحكّام ورجال السلطة الأيوبية، وكذلك المملوكية على حساب الشعب، كان من العوامل التي أدت إلى إصابة المجتمع بأمراض الشذوذ، فكثرَت الحالات، وتحدث عنها المؤرخون بلا حرج... وإذا كان هذا الشاب سُمراً ظمناً لأنه رفض ما طلبه منه سيده من فحش، فهناك حالات أخرى صلب فيها مجرمون يستحقون تلك العقوبة، ففي سنة إحدى وستين وستمئة ٦٦١هـ / ١٢٦٣م: ((سُمَر شاب، ذُكر أنه كان يرسل زوجته، وتدخل في بيوت النساء، فتحسن للمرأة الخروج معها لابسة أفخر ثيابها وحليها، وتشوقها، بأن تقول لها: هاهنا عرس أو وليمة، وقد اجتمع فيه من جماعة من النساء الأكابر، فلا تتركن من الزينة شيئاً ليحصل لك التجميل بينهن، فتفعل تلك المغرورة، أقصى ما تقدر عليه، وتخرج معها، فتجيء بها إلى بيت زوجها، فيأخذ جميع ما عليها، ثم يخنقها ويرميها في بئر داره، فعل ذلك بجماعة من النساء، وهو نظير ما فعله شخص يعرف بالمكحلة في سنة ثمان وعشرين وستمئة، سُمَر وبقي أياماً ومات ثم هتكه الله تعالى، فأخذ هو وامراته ضرباً، فاعترفا. فأما المرأة فخنقت وجعلت في جوالق، وعلق تحت الخشب الذي سُمَر عليها. فأصبح الناس فوجدوا الجولق المعلق والرجل المسمر خارج باب الفرج...^(٤٨))). وكثرت القصص من هذا النوع، فكلما كثر الفقر والمعاناة، كلما كثرت حوادث السرقة والقتل، ففي سنة اثنين وعشرين وستمئة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م، (صلب) معظم في سوق الغنم العتيق في طريق الميدان الأخضر، شمس الدين بن الكعكي، رأس حزب، وخلفه جماعة، ورفيقاً له منكسين على رؤوسهما، وكانوا ينزلون على

الناس في البساتين ويقتلون وينهبون، والمعظم في الكرك، وبلغه أن ابن الكعكي، قال لأخي المعظم الصالح اسماعيل، وكان صاحب بصرى، أنا أخذ لك دمشق، فكتب إلى والي دمشق بأن يصلب ابن الكعكي ورفيقه منكسين فصلبهما في العشر الأواخر من رمضان، فأقاما أياماً في حر الشمس يسفي الريح والتراب على وجوههما ورؤوسهما، ولا يقدران على طعام أو شراب إلى أن ماتا. مات ابن الكعكي أولاً، وكان يستغيث كثيراً ويقلق، وكان رفيقه أجلد منه وأصبر، وكان رجلاً خياطاً آدم اللون، وقيل إنه كان بريئاً مما رمي به، فمات بعد ابن الكعكي بيوم أو نحوه. وكان ابن الكعكي من المترفين ذوي الثروة، وله أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية وغير ذلك. قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وقدم المعظم دمشق بعدما ماتا فمرض مرضاً عظيماً أشفي منه ثم أبل ولم يزل يستنقص عليه حتى مات^(٤٩).

تلك كانت عقوبة من يحاول الخروج على السلطة، ليس الصلب فقط، بل بوضعية منكسة. لقد استهدفت السلطة من وراء تنفيذ العقوبات، إرهاب الشعب وإشغاله أكثر بتطبيق القانون وإحقاق الحق، ومعظم العقوبات في العصرين الأيوبي والمملوكي، كانت شديدة غير إنسانية، وزاد في بشاعتها، أنها نفذت على مرأى ومسمع من جميع أفراد الشعب، وقد تنوعت العقوبات فهناك: الصلب، والشنق، والحرق، والتوسيط، والتسمير، والتعليق بالكلايب، أو ضرب الأعناق، والخوزقة، والتجريس، وغير ذلك. وفي حوادث سنة ثلاث وعشرين وستمئة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، ذكر أبو شامة حادثة غريبة حدثت في دمشق. حيث قام رجل فاتك بقتل طفل صغير، من أجل أقراط ذهب في أذنيه، ثم حمّله في ففة، ودفنه في باب الصغير. وشكت والدّة الطفل بالرجل (كونه بجوارهم) واتهمته، وعذّب، فلم يعترف، فما كان منها إلا طلقت زوجها وتزوجت القاتل، وظلت معه مدة تستدرجه حتى أخبرها بجريمته، وأخذها إلى مكان القبر، وفتحها وأراها ولدها، فلم تتمالك وضربت القاتل بسكين أعدتها له فشقت بطنه ودفنته فألقته في القبر. ثم أخبرت المسؤول، وأخذته إلى مكان القبر. فقال لها: ((أحسن الله

ينبغي لنا كلنا أن نشرب لكل فتوة))، لقد مات هذا الطفل خنقاً طمعاً في حلية الذهب، لكن أطفالاً كثيرون ماتوا لأسباب عديدة، فلو أخذنا مثلاً عائلة أبي شامة لوحدها، وأقصد بذلك أولاده من بنات وبنين، للاحظنا أنه أكثر في كتابه من ذكر عبارة، وفي هذه السنة ولد لي مولود ذكر، أو ولدت ابنتي فلانة، ثم بعد عام أو عامين يقول: وفي يوم كذا في الساعة كذا، مات ابني فلان أو ابنتي فلانة، فمثلاً في سنة ثلاث وأربعين وستمئة، توفي ابنه محمد، وبعد ذلك بأربعة أيام توفيت ابنته زينب^(٥٠).

وهكذا مات شخصان من أسرة واحدة في بضعة أيام، ومع أن أبا شامة لم يذكر سبب الوفاة، لكن من الممكن أن يكون السبب في حالة كهذه، أحد الأمراض السارية. وقد ذكر في أحداث سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م: ((ووقع وباء كثير في زمن الربيع وهو من أعجب ما يؤرخ، فعم الناس المرض وكثر الموت))، ويمكن أن نذكر هنا موت الفجأة، الذي انتبه له أبو شامة، فقال في بدايات أحداث سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م: ((وكثر موت الفجأة في تلك الأيام، فمات بها جماعة^(٥١))). ولعله قصد بذلك الذبحة القلبية، التي كثرت في أيامنا هذه أيضاً.

ومن الصور الاجتماعية القائمة، التي نقلها لنا أبو شامة، صورة القضاء، فلو تساءلنا عن القضاء، كيف كان حاله؟ لأجابنا أبو شامة، بأنه لم يكن بأفضل حال من غيره، وكثيراً ما كان الناس يشكون من القضاء وسوء أخلاقهم، ومن كثرة تبديلهم، ففي سنة تسع وخمسين وستمئة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م، قال: ((عزل عن قضاء دمشق النجم بن الصدر بن سني الدولة، وتولى القاضي شمس الدين أحمد... ابن خلكان، الذي كان نائباً في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة وجلس مكان النجم وأبيه بالمدرسة العادية، ثم وكل على النجم، وأمره بالسفر إلى الديار المصرية وكان حاكماً جائراً، فاجراً، ظالماً، منعدياً، فاستراح منه العباد والبلاد، وهو الذي شاع عنه أنه أودع كيساً فيه ألف دينار، فبدل كيساً فيه فلوس، وذكر ذلك في القصيدة التي هجي بها، ولما تولى الحكم، ورفعت إلى الملك المظفر، وفي الجملة تولى الحكم في زماننا ثلاثة مشهورون

بالفسق، هذا الظالم، والرفيع الجيلي، وابن الجمال المصري، كان نائباً لأبيه^(٥٢)، وقال أبو شامة في ذلك:

دمشق في عصرنا مع فضلها بليت من القضاة بجهال وأوقاح
بأعجمين ومصري وصانغهم والإربلي وخياط وفلاح
هم ضعف ستة والنواب كلهم ضعفان أحزانهم أضعاف أفراس^(٥٣)

أي أنهم كانوا اثني عشر قاضياً مع نوابهم، حاول أبو شامة حصرهم وتعدادهم في شعره. ومن الأخبار الطريفة عن القضاة، ما ذكره في حوادث سنة ثلاث وستين وستمئة ٦٦٣هـ/٢٦٥م، حيث قال: ((جاء من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحي ثلاثة تقاليد للقضاة شمس الدين محمد بن عطاء الحنفي، والزين بن عبد السلام الزواوي المالكي، وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر الحنبلي، وجعل كل واحد منهم قاضي القضاة من المذاهب الأربعة، ولكل منهم نائب، وهذا شيء ما أظنه جرى في زمان سابق، فلما وصلت العهود الثلاثة، لم يقبل المالكي فوافق الحنبلي واعتذر بالعجز، وقبل الحنفي، فإنه كان نائباً للشافعية، فاستمر على الحكم، ثم ورد كتاب من مصر بإلزامهما بذلك، وأخذ ما بأيديهما من الأوقاف إن لم يفعل، فأجابا، ثم أصبح المالكي فأشهد على نفسه بأنه عزل نفسه عن القضاء وعن الأوقاف، فترك واستمر الحنبلي ثم ورد الأمر بإلزامه فقبل واستمر الجميع، لكن امتنع المالكي والحنبلي من أخذ الجامكية على القضاء وقالوا: نحن في كفاية، فأعفا منها، ومن العجب اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاء في زمن واحد، وكل منهم لقبه شمس الدين، واتفق أن الشافعي منهم استتاب من لقبه شمس الدين، فقال بعض الظرفاء:

أهل دمشق استرابوا من كثرة الحكم
وهم جميعاً شمس وحالهم في ظلام

وقيل أيضاً:

أظلم الشام وقد ولي الحكم شمس
ليس فيهم من بيت الحكم علماً أو يسوس^(٥٤)

وكانت هذه باختصار، صوراً عن أوضاع دمشق الاجتماعية في عصر أبي شامة، وهي بالفعل بمثابة صور حقيقية، التقطت لدمشق من خلال عدسة أبي شامة.

ثالثاً: الحياة العمرانية في عصر أبي شامة:

بعد أن استعرضنا أوضاع دمشق من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، ورأينا أن الحياة الاجتماعية، لا يمكن أن تزدهر في ظل أوضاع اقتصادية متردية، لأن الاقتصاد هو عماد الحياة، فمن الطبيعي والحالة هذه، أن يؤثر ذلك على الحياة العمرانية في دمشق في تلك الحقبة، لأن العمران يحتاج إلى مقومات وركائز أساسية منها: توفر الأمن والسلام، وتوفر المال... لذلك تركزت الأعمال العمرانية على العمارة الدينية بشكل خاص، وما يتعلق بها من مساجد ومدارس... وترميم القديم منها، والقليل منها ما يتعلق بالشؤون الحياتية الأخرى... ففي أحداث سنة ثمان وتسعين وخمسمئة ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م، ذكر أبو شامة ما يلي: ((وفيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة شيخ المقادسة رحمه الله تعالى، في بناء الجامع بالجبل، وكان بقاسيون رجل فامي يقال له أبو داود محاسن، فوضع أساسه وبلغ قامه، وانفق عليه ما كان يملكه، وبلغ ابن زين الدين مظفر الدين صاحب إربل، فبعث إلى الشيخ أبي عمر ملأاً فتممه ووقف عليه وقفاً، وبعد ذلك أراد ابن زين الدين أن يسوق الماء من برزة، وبعث ألف دينار لذلك، فقال الملك المعظم عيسى بن العادل: طريق الماء كلها قبور، وكيف يجوز أن تتبش عظام المسلمين، اشتروا بغلاً واعملوا مداراً وبالباقى مكاناً أوقفوه عليه ولا تؤذوا أحداً، ففعلوا^(٥٥))).

وهنا يمكن القول لم لم يتبرع المعظم صاحب دمشق بالمال لإنهاء الجامع، حتى تبرع صاحب إربل. طالما أن المعظم اهتم بأمر المسلمين حتى في قبورهم؟!

وبعد ذلك بعام واحد ((ابتدئ بعمارة قلعة دمشق^(٥٦))).

أما في سنة أربع وستمئة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م. ((ركبوا الساعة بالمنذنة الشمالية بالجامع، شرعوا في عمارة البرج الذي في قبالة المدرسة القيمازية^(٥٧))).

وبعد ثلاث سنوات أي في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م. شرع في عمارة المصلى بظاهر دمشق. المجاور لمسجد النازح. برسم صلاة العيدين. وهدم حائطه القبلي، ومنبره ليجدد فبنى بغير سقف. بل انتهت حيطانه من الجوانب الأربع. وفتحت له الأبواب، وشرفت أعالي حوائطه. وبني له منبر كبير عالي بجوانب المحراب، وفوقه قبة مبيضة، وتحت أرض القبة خلو إلى الأرض. يتصل به الصف الأول خلف الإمام، وكان يركز العلمان الأسودان في أعلى الدرج. ويقف الخطيب بينهما فيراهم جميع من في المصلى من كل جانب. وكان بناء حيطانه وإغلاق أبوابه صيانة له مما كان يوضع في أرضه من الدواب المينة. والعظام والأرواث ولاسيما مؤخر المصلى من شاميه [شماله]. ثم إنه في سنة ثلاث عشرة وستمئة ترتب الخطيب لإقامة الجمعة فيه سابع عشر رمضان. بعد أن جدد في قبلته رواقان سقف أحدهما. ولم يتم الآخر لوفاة الملك العادل الأمر بذلك ولزم من خراب ذلك المنبر. فجعل له منبر خشب. كالذي في سائر الجوامع. وترتب فيه إمام راتب يصلي الجمعة وغيرها^(٥٨))).

ثم تابع أبو شامة ما جرى من أعمال عمرانية في السنة ذاتها ٦١٣هـ/١٢١٦م. فقال: ((وفيها جددت أبواب جامع دمشق الغربية من جهة باب البريد بالنجاس الأصفر، وركبت في سادس عشر شوال. شرع في إصلاح الفوارة بجيرون، وعمل الشادروان والبركة بساحتها، واتخذ فيها مسجدا بإمام راتب^(٥٩))).

لقد اهتم أبو شامة بالمنشآت الدينية، لذلك فصل الحديث عنها، ولعل سكان دمشق شاركوه الاهتمام نفسه، وفي ذلك دلالة على ما شغل الناس آنذاك، وعلى نظرتهم إلى الأمور المهمة. وكان أول الأحداث الهامة سنة عشر وستمئة ٦١٠هـ/١٢١٣م، التي افتتح بها أبو شامة أخباره هي أن الملك العادل ((أمر بإحداث تركيب سلاسل، على أبواب السكك المجاورة للجامع، ومدها في أيام الجمع، ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع، وذلك لما كان ينال الناس من المشقة في زحمة الخيل التي يركبها بعض المصلين إلى الجامع، فحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم ترك ذلك بعد زمان، وعاد الأمر إلى ما كان عليه إلى الآن، وعمل بعض المتفرغين في ذلك نظماً، كان يغني به في الأسواق أوله:

إن ذا عام جديد	إن ذا يوم سعيد
والمدينة هاربة	فيدوها بالحديد
كل جمعة يسجنوها	كأنهم ما يعرفوها
والنبي لو أطلقوها	ما برح باب البريد ^(٦٠)

ومن الأخبار الطريفة التي وقعت في هذه السنة، ما جرى في حلب، فقد: ((ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خندق حلب، فقلعت، فوجد تحتها تسع عشر قطعة من ذهب وفضة على هيئة اللين فاعتبرت ما كان منها ذهباً مصرياً ثلاثة وستون رطلاً بالحلي، عشرة أرطال ونصف صوري، وأربعة وعشرون رطلاً فضة، ثم وجدوا حلقة من ذهب وزنها رطلان ونصف، فكمل الجميع قنطاراً^(٦١))).

كما افتتح أبو شامة أحداث السنة التالية، إحدى عشرة وستمئة ٦١١هـ/١٢١٤م، بقوله: ((ففيها شرع في تبليط رواقات الجامع الداخلية، وابتدأ بالحجر الشرقية، مكان السبع الكبير في ثالث عشر المحرم، وكانت أرض الجامع كلها، قد تكسر رخامها،

فبقي حفراً وجوراً^(٦٢)). وفي هذه السنة أيضاً: ((هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة، لتوسيع الخندق، ومن جملة ما هدم، حمام قايمار النجمي، ووقف دار الحدث النورية، وكان قريباً، وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة،... وفيها أنشأ المعظم الفندق الكبير المنسوب إليه بأرض عاتكة قبلي القنوات^(٦٣))).

وبعد عام ٦١١هـ / ١٢١٤م، لم يرد العمارة ذكر حتى قدوم سنة ثلاثين وستمئة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م، فذكر أبو شامة في بداية أحداثها ما يلي: ((وفيها تم بناء دار الحديث الجديدة التي أنشأها الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب^(٦٤))). لكن بعد ذلك بعام واحد، قامت أعمال عمرانية تتعلق بالتجارة والأسواق، حيث قال: ((وفي هذه السنة أحدثت القيسارية التي وراء سوق النحاسين بفتح بابها إلى الزيادة، ونقل إليها سوق الصاغة، كذلك ما أحدث من الدكاكين في وسط الزيادة، كان في هذه السنة^(٦٥))).

وفي مقابل أعمال العمران والتوسيع هذه، حدثت في بعض السنوات انهيارات وتهدمات، فمن الطبيعي في هذه الحالة، أن تقوم أعمال إصلاحية، لإعادة البناء والعمران. ففي سنة ست وأربعين وستمئة ٦٤٦هـ / ١٢٤٩م: ((سقطت قنطرة عظيمة رومية، كانت على علو سوق الرقيق بالسوق الكبير، فانهدم بسببها حوانيت ودور كثيرة كانت عليها، ومتصلة بها وقعت نهراً، وفي ليلة الأحد، الخامس والعشرين من رجب، وقع الحريق في المئذنة الشرقية بجامع دمشق، فأحرق أعلاها وجميع ما فيها من البيوت والمطلع جميعه، فإنه كان سقالات من خشب، وسلم الجامع بفضل الله تعالى ورحمته^(٦٦))). وبعد ذلك بعام ((أمر ببناء المنارة الشرقية بالجامع، وهي سنة سبع وأربعين وستمئة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، الشروع ((في بناء المسجد خارج دمشق على نهر يزيد عند جسر ابن البعلبكي المسامت للجسر الأبيض^(٦٧))).

ويلاحظ أن أبا شامة، كان يذكر دائماً الشروع في بناء مسجد أو سور أو قلعة، لكنه لم يخبرنا فيما بعد هل تم الانتهاء من البناء أم لم يتم...؟!

ولعله من المفيد أيضاً، أن نذكر في هذا المجال أيضاً اهتمام الحكام بالأمور الأخلاقية في المجتمع، على الرغم من أنها كانت الحالة الوحيدة التي ذكرها أبو شامة، فقال في أحداث سنة اثنتين وثلاثين وستمئة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م: ((وفي هذا الشهر (رجب) خرب خان بالعقبة، كان كثير الفسق والفساد، ليُجعل مسجداً تصلى فيه الجمعة، فتم جامعاً كبيراً حسناً، سني بجامع التوبة، وذلك في أيام الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر بن أيوب، وهو المجدد أيضاً لمسجد جراح خارج باب الصغير^(٦٨))).

هذه كانت النواحي العمرانية، التي ذكرها كتاب أبي شامة، والتي يظهر منها أنها كانت أعمال إصلاح وترميم وتجديد، أكثر منها بناء جديد، وذلك بسبب الظروف الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية الصعبة التي ألمت بالمجتمع الدمشقي.

خاتمة:

عاش أبو شامة، مؤرخ دمشق في القرن السابع الهجري/الثالث للميلاد، في عصر حافل بالصراعات السياسية، تعددت فيه الدول والحكام، تشابكت فيه الأحداث، فقد عاصر الدولة الأيوبية، منذ ما بعد صلاح الدين، كما شهد الحكم المملوكي، والغسزوي، المغولي، هذا في الوقت الذي كانت فيه الفرنجة الصليبيون، ما زالوا يحتلون قسماً كبيراً من البلاد، ففي زمانه قامت الحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة، وفي زمانه استلمت شجر الدار الحكم في مصر، وبعدها قامت دولة المماليك، وفي زمانه حدثت معركة عين جالوت الشهيرة...

لقد ألمه ما رآه من تمزق بلاده، وترف حكامه، ومعاناة شعبه، فدرس التاريخ، بعد أن أنهى علومه الدينية، فأراد أن يكتب تذكره وموعظة لحكامه من بني أيوب، ليقتدوا

بسيرة صلاح الدين ونور الدين زنكي، فكتب الروضتين، ثم أعاد كتابته باسم عيون الروضتين، ثم كتب الذيل على الروضتين، الذي يعدّ من أثنى وأنفس الكتب التاريخية، في ذلك العصر، خصصه لوفيات الأعيان في زمانه، لكنه زوده أيضاً بكثير من الأخبار المهمة والحوادث الطريفة، والقصص المدهشة، والمعلومات المفيدة، وحمله جملة من الأشعار والقصائد العذبة، التي تكلمت فأفصحت، وأنشدت فأطربت، وشرحت فعبرت، فساعدت بذلك على رسم صورة شبه متكاملة عن أوضاع دمشق اقتصادياً، حيث كانت ريشته ترسم خطوطاً حزينة مأساوية فيها الفقر والغلاء والجللاء والجوع والزلازل والجراد والحرائق، أما ريشته الاجتماعية، فكانت تتخبط ما بين الألوان القاتمة والباهتة، ولم تقترب من الألوان المضيئة البراقة إلا ما ندر... وهكذا استمر يكتب التاريخ، حتى قبيل وفاته، على الرغم من المحن التي ابتلي بها.

الحواشي

- (١) ابن شداد: "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" تحقيق الشيال ، طبعة عام ١٩٦٤، الدار المصرية للتأليف والنشر، ص ٢٢.
- (٢) أبو شامة: "تراجم رجال القرنين السادس والسابع/ المعروف بالذيل على الروضتين"، عرف الكتاب وترجم للمؤلف، وصححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عني بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٧٤، ص ٥، وسأذكره اختصاراً بـ "الذيل".
- (٣) أبو شامة: الذيل، ص ٥.
- (٤) قاسم عبده وعلي السيد علي، "الأيوبيون والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري"، ط٢، ١٩٩٦، ص ٤-٥.
- (٥) الذيل، ص ١٦.
- (٦) الذيل، ص ١٩.
- (٧) الذيل، ص ١٩.
- (٨) المقرئزي: "السلوك لمعرفة دول الملوك"، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، ط٢، ١٩٥٦، القاهرة، ج١، ق١، ص ١٥٧.
- (٩) عبد اللطيف البغدادي، "الإفادة والاعتبار"، تحقيق أحمد سبانو، دمشق، ص ٨٧.
- (١٠) عبد اللطيف البغدادي، المصدر السالف، ص ٩٢-٩٣.

- (١١) الذيل، ص ٢٠.
- (١٢) الذيل، ص ٢٠.
- (١٣) الذيل، ص ٢٠. عبد اللطيف البغدادي، ص ١٠١.
- (١٤) الذيل، ص ٢٩.
- (١٥) الذيل، ص ٢٠.
- (١٦) الذيل، ص ٢٠.
- (١٧) الذيل، ص ٧٨.
- (١٨) الذيل، ص ٥٠.
- (١٩) الذيل، ص ١٣٢.
- (٢٠) المقريري: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٣٢.
- (٢١) الذيل، ص ١٥٤.
- (٢٢) المقريري: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٣٣-٢٣٥.
- (٢٣) الذيل، ص ١٦٥.
- (٢٤) الذيل، ص ١٦٨.
- (٢٥) الذيل، ص ١٧٠.
- (٢٦) الذيل، ص ١٧١.
- (٢٧) الذيل، ص ١٧٤.
- (٢٨) الذيل، ص ١٧٥.

- (٢٩) الذيل، ص ١٧٨.
- (٣٠) الذيل، ص ١٧٨.
- (٣١) المقرئزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، ص ٣١.
- (٣٢) الذيل، ص ٢٠١.
- (٣٣) الذيل، ص ٢٠٣.
- (٣٤) الذيل، ص ٢٠٣.
- (٣٥) الذيل، ص ٢٠٤.
- (٣٦) الذيل، ص ٢٠٤-٢٠٥.
- (٣٧) الذيل، ص ٢١١.
- (٣٨) الذيل، ص ٨٦.
- (٣٩) الذيل، ص ١٩٦.
- (٤٠) الذيل، ص ١٩٧.
- (٤١) الذيل، ص ١٩٦.
- (٤٢) الذيل، ص ٢٠٥.
- (٤٣) الذيل، ص ٦٩.
- (٤٤) الذيل، ص ٢٠٤.
- (٤٥) الذيل، ص ١٧٩.
- (٤٦) الذيل، ص ١٨١.
- (٤٧) الذيل، ص ١٨١.
- (٤٨) الذيل، ص ٢٢١-٢٢٢.
- (٤٩) الذيل، ص ١٤٤.
- (٥٠) الذيل، ص ١٧٦.

- (*) الذيل، ص ٢٠٠.
- (٥١) الذيل، ص ١٨٩.
- (٥٢) الذيل، ص ٢١٤.
- (٥٣) الذيل، ص ٢١٤.
- (٥٤) الذيل، ص ٢٣٥-٢٣٦.
- (٥٥) الذيل، ص ٢٩.
- (٥٦) الذيل، ص ٣٣.
- (٥٧) الذيل، ص ٦٥.
- (٥٨) الذيل، ص ٧٦.
- (٥٩) الذيل، ص ٧٦.
- (٦٠) الذيل، ص ٨٢.
- (٦١) الذيل، ص ٨٤.
- (٦٢) الذيل، ص ٨٦.
- (٦٣) الذيل، ص ٨٧.
- (٦٤) الذيل، ص ١٦١.
- (٦٥) الذيل، ص ١٦٢.
- (٦٦) الذيل، ص ١٨٢.
- (٦٧) الذيل، ص ١٨٣.
- (٦٨) الذيل، ص ١٦٣.